الخلافة الأموية والأندلس

كانت هذه الأحداث تجري على قدمٍ وساق، بينما كانت الدعوة العباسية تشغل الخلافة الأموية عن بذل العناية الواجبة بهذا الإقليم البعيد عن مركز الخلافة في أقصى الغرب، وقد انشغلت الخلافة ومركزها في دمشق انشغالاً كاملاً عن الأندلس، وأوكلت هذا الأمر لأُمراء إفريقية والأندلس وإمكاناتهم، وزاد الأمر خطورة ثورة الخوارج في إفريقية عام (٧٤٠م)، ثم ثورة البربر ضد العرب في أسبانيا وتكرارها عام (٧٤٠م، ٧٤٧م) .. كل ذلك يُفسّر لنا ما تتابع من بعض الهزائم في فرنسا، مما أثّرَ على الروح المعنوية في مسلمي الأندلس.

وفي عام (١٣٢هـ - ٧٥٠م) قامت الدولة العبّاسيّة، وانتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد مما أدى إلى انقسام العالم الإسلامي.

ولم يقتصر التغيير على الشرق، بل شمل الغرب أيضًا، فقد حلّت الدولة الكارولنجية مكان الدولة الميروفنجية، فبعد وفاة شارل مارتل عام (٧٤١م)، ورثه أبناؤه الثلاثة «كارلمان، وبيين القصير، وابنٌ غير شرعي هو جريفو» وساعدت الظروف «بيين القصير» فانفرد بالنفوذ عام (٧٤٧م) بسبب دهائه، وتأييد البابوية له، فانهى حكم الميروفنجيين.

وانتهى الوضع السياسي في منتصف القرن الثامن للميلاد، المرافق النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، انتهى إلى وجود ثلاث قوى عالمية هي:

١ - الإمبراطورية الإسلامية، الأمويون ثم العباسيون.

٢ - الإمبراطورية البيزنطية، في شرق أوروبا.

٣ - دولة الفرنجة الكارولنجية في غرب أوروبا.

ولم يقف الأمر بالنسبة لأوضاع المسلمين ولم تستقر عند هذا الحد، فخلال هذه الظروف المضطربة في العالم الإسلامي، قام المسيحيون في مدن سبتمانيا بمساعدة الجيش الفرنجي، فتمكّن «أنسمندس» القوطي من إرجاع المسلمين عن سبتمانيا ومدنها عام (٧٥٢م)، واستعاد أغلب المدن، أما «أربونة» وهي آخر حصن قويّ للمسلمين، فقد حاصرها الفرنجة، وطال حصارها لمناعتها، وتمكّن المسلمون خلال الحصار من قتل القائد القوطي في كمين، وبقيت أربونة ممتنعة على أعدائها[١].

ولما دخل عبد الرحمن الداخل الأموي الأندلس، واستتب الأمر له عام (١٤٠هـ - ٧٥٨م) ذلك ما سنعرض له في الصفحات القادمة.

(١) «المسلمون في أوروبا» (ص١٢٢، ١٢٣).

obeikandl.com

النهاية في المشرق والبداية في المغرب

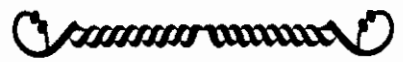

بالرغم من أن الخلافة الأموية كانت تسيطر على أراضٍ واسعة مترامية تُشكل دولة عظيمة لها قوة وشكيمة، إلاّ أن انهيارها جاء سريعاً وفي أوج هذه العظمة والأطراف المترامية؛ وذلك لأنها كانت تقوم على دعائم مضطربة من جراء تلك الأحقاد التي أثارتها السياسة الأموية في نفوس خصومها، فقد كانت هذه الأحقاد تُحيط مُلك بني أُميّة بسياج خطر من الحفيظة والبُغض، ولقد كانت هذه الخصومة الخطرة التي طالما تغذّت بظمأ الانتقام، هي عماد الدعوة الشيعية التي لبثت تشق طريقها منذ مقتل عليّ بن أبي طالب، ثم مقتل بنيه من بعده[١].

وفي أوائل القرن الثاني من الهجرة، استطاع الشيعة أن يظهروا في النواحي، ولاسيما في العراق وخراسان، وأن يُدبّروا عِدَّة ثورات محلية خطيرة، وقد أُخمدت هذه الحركات الأُولى في سيل من الدماء، ولكن إراقة الدماء كان يُذكي ظمأ الانتقام، ولم تكن المعركة متكافئة من الوجهة الماديّة، فلم يكُ للشيعة جيوش منظمة أو موارد يُعتدّ بها، ولكن الخطر كان يكمن في نواحيها المعنوية، واشتدّ هذا الخطر حينما ضعف أمر العمال والولاة في النواحي، واتسع الأمر على الحكومة المركزية، وانحلّ سلطانها في الأماكن والولايات النائية، وأضحى عُرضةً للانتقاض والانهيار.

وقد ظلَّ دعاة الشيعة قرابة النصف قرن يُنظمون دعوتهم، ويضعون لها الأصول والقواعد، ويحشدون لها الأنصار والأتباع، وكانت دعوتهم تلقى تأييداً كبيراً في الخفاء، شأنها شأن الدعوات السرية الثورية، وبرغم اختلاف الشيعة فيما بينهم، إلاّ أنهم اتحدوا واتفقوا على خصومة بني أُميّة ومواجهتهم في السر، ثم فيما بعد في العلن.

---

(١) انظر «الخلافة الأموية والخلافة العباسية» ضمن هذه السلسلة.

وقد كانت إمامة الشيعة بعد مقتل الحسين بن عليّ إلى أخيه محمد بن عليّ ابن أبي طالب، المعروف بابن الحنفية، وهو أخو الحسن والحسين من الأب فقط، ويُعرف بابن الحنفية نسبة لأمه خولة بنت جعفر بن قيس المعروفة بالحنفية، فلما توفي ابن الحنفية سنة (٨١هـ)، قام بها ولده أبو هاشم ثم عبد الله بوصية منه، واستمرّ أبو هاشم أيام الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان قائمًا بأمر الشيعة، يفدون عليه ويُؤدون له الخراج، ثم توفي مسمومًا سنة (٩٨هـ) بتحريض من سليمان بن عبد الملك – فيما يُقال – ، وأوصى بالإمامة إلى ابن عمه محمد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس كبير علماء الشيعة يومئذ، والعباس هو ابن عبد المطلب عم النّبيّ ﷺ(١).

وتقدّمت الدعوة الشيعية على يدّ محمد بن علي تقدُّمًا كبيرًا، وظفرت في ذلك الحين بأعظم دعاتها السياسيين، وهو أبو مسلم الخراساني، وقد كان أبو مسلم شخصية عظيمة تتمتع بقدرة ومواهب فائقة، ولكن الغموض يحيط – مع ذلك – بأصله ونشأته، وتختلف الرواية في أمره اختلافًا كبيرًا؛ حتى أنها لتختلف، فيما إذا كان من الأحرار أو الموالي، فيقول البعض: أنه حرّ، يرجع إلى أصل فارس رفيع المنبت، وأنه وُلِدَ بأصبهان ونشأ بالكوفة، واسمه الحقيقي إبراهيم بن عثمان بن بشار، ويقول البعض: أنه من الموالي، وأصله من أصبهان، واسمه إبراهيم.

وقيل: بل كان عبدًا لبكير بن ماهان أحد عمال السِّنْد، وإنه استصحبه إلى مكة في زيارة لإبراهيم الإمام، فأعجب إبراهيم بذكائه وفِطْنَتِه واشْتراه منه، وأما تسميته بأبي مسلم، فيُقال أنه سمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم، واتّخذ كُنيته أبا مسلم. وقيل: إن إبراهيم الإمام هو الذي سماه بهذا الاسم.

---

(١) انظر «الخلافة العباسية» في هذه السلسلة. «الخلافة العباسية» عبد المنعم الهاشمي، ط دار ابن حزم – بيروت.

ولعلّ أرجح رواية في شأن هذا الداعية الكبير أنه كان فتىً مغموراً ، وُلِدَ بمرو في أُسرة رقيقة الحال، ونشأ بأصبهان، واتّصل منذ فتوته ببعض نقباء الشيعة في الكوفة، فآنسوا فيه ذكاءً خارقًا، وحماسةً تضطرم لآل البيت وقضيتهم، وسار معهم إلى محمد بن علي بن عبد الله بمكة، فأُعجب بذكائه وعزمه، واختاره داعيةً للشيعة في خراسان، موطنه وأصلح ميدان لنشاطه، ولما ظهر أبو مسلم وقوي أمره، وكثر أنصاره، ادَّعى أنّه من آل البيت من ولد سليط بن عبد الله بن عباس[١]، ولما توفى محمد بن عليّ وخلفه في الإمامة ولده إبراهيم الملقب بالإمام بعهد منه سنة (١٢٦هـ).

وقد استمر أبو مسلم في مهمته، يبُثُّ الدعوة، ويحشد لها الأنصار، وكانت خراسان كما قدّمنا أخصب ميدان للدعوة الشيعية لبُعْدِها عن الحكومة المركزية في دمشق، وتعاقُب الفتن بين المضرية واليمنية، وكان أمير خراسان من قِبَل بني أُمية نصر بن سيّار قد وُضِعَ في موقف صعب، ومأزق شديد، فراح يستنجد بحكومة الخلافة الأموية في دمشق، ولكن دون جدوى، وهو يشهد ازدياد حركة الشيعة، ويرى تفاقم الحوادث، وهو عاجز عن فعل شيء في مواجهة المد الشيعي الذي يشتدّ ويجتاح خراسان بسرعة، ويُروى أن نصر بن سيار كتب إلى مروان بن محمد الخليفة يومئذ، هذا الشعر الفياض بالنبوءة والنذير يستنجد به، ويستحثه للدفاع عن عرشه وتُراث أسرته:

أرى بين الرماد وميض جمر ... مـاجج بأن يكون له ضـرام
فـإن النار بالعـودين تذكى ... وإن الحـرب أولهـا الكلام
فإن لم يطفئها عقلاء قوم ... يكون وقـودها جـثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقـاظ أُمـيـة أم نيـام
فـإن كـانوا لحـينهم نيـامًـا ... فقل قوموا فقد حان القيام
فـقـري عن رحلك ثم قـولي ... على الإسلام والعرب السلام

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (جـ٥، ص٩٥) وما بعدها.

وكان أبو مسلم قد أعدّ العُدَّة والخُطَّة للانقضاض على رجل الأمويين في منطقة خراسان وهو نصر بن سيار، فهبَّ هبّةً واحدة مع صحبه على قوات بني أُميّة، ودارت معارك طاحنة بين عامي (١٢٩هـ، ١٣٠هـ)، واستولى أبو مسلم على مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور، وطردَ منها عُمال بني أُميّة، وفرّ نصر بن سيّار إلى العراق، وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس، ورفع فيهما لواء الشيعة الأسود، ودعا لأبي العباس السفاح أخي إبراهيم الإمام وخلفه، وكان الخليفة الأمويّ مروان بن محمد قد هاله ما رأى من تغَلْغُلِ الدَّعوة الشيعية في النواحي، فقبض على إبراهيم الإمام، وهو يومئذ بإحدى القرى الشامية (دهي الحميمة – بحوران)، وزجّه إلى السجن حتى مات سنة (١٣٢هـ) وزعم أخوه عبد الله أبو العباس وأصحابه، أنّه أوصى إليه من بعده، فدعا له أبو مسلم في خراسان وفارس حسبما تقدّم ثم سيَّر أبو مسلم جيشًا إلى العراق، فلقيه أميرها ابن هُبيرة وفرَّ إلى الشمال، واستولى الشيعة على العراق، ودعوا لأبي العباس بالخلافة في (ربيع الآخر سنة ١٣٢هـ). ونزل أبو العباس عبد الله السفاح «بالكوفة»، واستقرّ بها يرقب الحوادث[١].

في ذلك الحين كان مروان بن محمد – أو مروان الثاني – (ويُعرف مروان بن محمد أيضًا بمروان الجعد، ومروان الحمار) الذي وُليَ الخلافة سنة (١٢٧هـ)[٢]، وكان مروان يتاهب للدفاع عن خلافة وملك بني أُميّة، الذي تصدَّع صرحه سراعًا؛ فحشد جيشًا ضخمًا، وسار شرقًا حتى وصل إلى ضفاف نهر الزَّاب، وهو فرع من دِجْلة يتّصِلُ به في الضفة الشرقية جنوب شرقي الموصل، وسار للقائه قائد المسوّدة الشيعة في الشمال، أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي وأمدَّه أبو العباس بجيش آخر بقيادة عمه عبد الله بن علي، وبلغت قوات الشيعة كلها زهاء عشرين ألفًا، وبلغت القوات الأُمويّة زهاء مئة وعشرين ألفًا.

---

(١) انظر «الخلافة العباسية» عبد المنعم الهاشمي، دار ابن حزم – بيروت ط ٢٠٠٢.

(٢) «الخلافة الأموية» عبد المنعم الهاشمي، دار ابن حزم – بيروت.

ولكن عزائم وحماسة الشيعة كانت أكثر شكيمة من كثرة الجيش الأموي الذي خبت عزائمه، واختلّت صفوفه وغاضت قواه المعنوية، والتقى الفريقان على ضفة نهر الزاب اليُسرى، ونشبت بينهما معركة شديدة حاسمة، انتهت بهزيمة الجيش الأموي وتمزيقه، وذلك في (الحادي عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٢هـ - ٢٥ يناير سنة ٧٥٠م).

وغرق في النهر آلاف من جند الشام، واستولى الشيعة على غنائمه وأسلابه، وفرّ مروان في جمع من صحبه إلى الشام، فسار في أثره عبد الله بن عليّ، وحاصر دمشق، واقتحمها في الخامس من رمضان من نفس العام، وفرّ مروان إلى فلسطين، ثم إلى مصر، فبعث «السفاح» في أثره جيشًا بقيادة عمه صالح بن عليّ، فلحق به في مصر، وظلّ يُطارده من مكان إلى مكان؛ حتى ظفر به في قرية بوصير على مقربة من الجيزة، وهنالك مُزِّقَتْ البقيّة الباقية من أنصار بني أُميّة.

وقُتِلَ مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق وأرسل رأسه إلى «السفاح»، وذلك في (السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ) الموافق سنة (٧٥٠م)[١].

وهكذا وبسرعة تُشير الدهشة انهارت دعائم الدولة الأموية، وقامت على أنقاضها دولة بني العباس، ولو نظرنا إلى الوراء قليلاً نجد أنه مما لا شكّ فيه أنّ أكبر الفضل في تحطيم دولة الأمويين - ذلك الصرح الشامخ - وقيام دولة بني العباس يرجع إلى جهود تلك الشخصية العظيمة وهو أبو مسلم الخراساني.

ولكن بني العباس ما كادوا يتبوّأون ذلك الملك الواسع، حتى غلبت عليهم عصبية الأسرة، ووجدوا في أبي مسلم منافسًا غريبًا عليهم تُخشى عواقبه، فلم تمضِ أعوام قلائل حتى قُتِلَ أبو مسلم في (شعبان سنة ١٣٧هـ) قتله أبو جعفر

(١) انظر «الخلافة الأموية» عبد المنعم الهاشمي (ص٣٩٠) وما بعدها.

المنصور أخو أبي العباس وخلفه[١]، ثم تتبع زعماء الشيعة من ولد عليّ بن أبي طالب بالقبض والمطاردة، حتى مزّق شملهم وسحق دعوتهم، وهكذا كانت نهاية الأمويين في الشرق؛ لتنطلق دولة بني العباس، وفي الوقت نفسه كانت بداية الأمويين في الغرب بعصر الأمراء، وعلى رأسهم عبد الرحمن الداخل (صقر قريش).

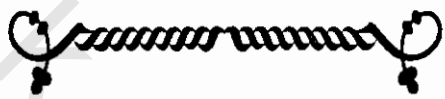

(١) انظر «قصة مقتله في «الخلافة العبّاسيّة» عبد المنعم الهاشمي.

obeikandl.com